نماذج من اتجاهات العلماء في بيان "مكانة مكة المكرمة"

د. عبدالرحمن بن محمد بودرع
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة عبدالمالك السعدي - المملكة المغربية

١ - مكة المكرمة:

بلد الله الحرام، سميت في القرآن الكريم بالبلد(١)، والبلد الأمين(٢)، والبلدة(٣)، وبكة(٤)، وأم القرى(٥)، والقرية(٦). وكان البيت يدعى قادسا، ويدعى بادرا، ويدعى القرية القديمة، ويدعى البيت العتيق.

وعن مجاهد قال: "من أسمائها مكة وبكة وأم رحم وأم القرى والباسة" ... والحاطمة: تحطم من يستخف بها، والناسة تنسهم؛ أي: تخرجهم إخراجا إذا غشموا وظلموا(٧).

---

(١) قال تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١ - ٢].

(٢) قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ١ - ٣].

(٣) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١].

(٤) قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

(٥) قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

(٦) قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

(٧) [نهاية الأرب في فنون الأدب: ١/٢٩٧-٣١٤]، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري التيمي القرشي (ت٧٣٣)، طبعة دار الكتب، مصر.

٢ - مكانتها(٨):

أجمع العلماء على أن مكة المكرمة والمدينة النبوية أفضل بقاع الأرض من جهة مضاعفة ثواب الصلوات، ويليهما في الفضل بيت المقدس.

فمما ورد في مكانتها أن فيها أول بيت وضع للناس من أجل العبادة، ويرجع تاريخ عمارتها إلى عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وفيها ولد رسول الله محمد ﷺ، وفيها كان مبعثه، ومنها خرجت دعوة الإسلام حتى عمت الدنيا، وفيها المسجد الحرام الذي تعد الصلاة فيه بمئة ألف صلاة، وفيها من الآثار مقام إبراهيم، وبئر زمزم، ودار الأرقم بن الأرقم، وغار حراء، وغار ثور...

ومن ذلك أيضا ما نقل إلينا من أخبار النبي ﷺ من تخصيص قريش بزيادة العلم، وحض الأمة على متابعتهم؛ بدليل قوله ﷺ، في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: "الأئمة من قريش؛ إن لهم عليكم حقًا ولكم عليهم حقًا مثل ذلك"(٩)، والحديث الذي رواه أبو سلمة عن أبي بريدة عن النبي ﷺ قال: "الناس تبع لقريش في هذا الأمر،

---

(٨) عبارة "مكانة مكة" أنسب من "فضائل مكة" وأعم؛ لأن "الفضائل" خاصة بأمكنة دون أخرى، وأزمنة دون أخرى من جهة الشرع فقط، أما "المكانة" فهي صفة مكتسبة، وهي أعم من الفضائل. وهذا ما يفيده قول ابن حزم الأندلسي: "ومكة أفضل بلاد الله تعالى، نعني الحرم وحده، وما وقع عليه اسم عرفات فقط، وبعدها مدينة النبي عليه السلام، نعني حرمها وحده، ثم بيت المقدس، نعني المسجد وحده. هذا قول جمهور العلماء". [المحلى بالآثار: ٣٢٥/٥-٣٣٣]، علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦)، تح. عبدالغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٩) أخرجه الإمام أحمد عن أنس بن مالك: [مسند أحمد: ١٢٩/٣و١٨٣]، أحمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١)، مؤسسة قرطبة، مصر. والطبراني في [المعجم الكبير: ٢٥٢/١]: عن أنس بن مالك قال: "جاء رسول الله ﷺ ونحن في بيت فكل إنسان منا تأخر عن مجلسه؛ ليجلس إليه رسول الله ﷺ، فقام على الباب فقال:"الأئمة من قريش، ولهم حق، ولي حق ما فعلوا ثلاثا: إن حكموا عدلوا، وإن عاهدوا وفوا، وإن استرحموا رحموا...". وأخرجه الطبراني والطيالسي والبزار، والمصنف في التاريخ من طريق سعد بن إبراهيم عن أنس بلفظ "الأئمة من قريش ما إذا حكموا فعدلوا" الحديث، وأخرجه النسائي والبخاري أيضا في التاريخ، وأبو يعلى من طريق بكير الجزري عن أنس، وله طرق عدة عن أنس منها للطبراني من رواية =

خيارهم تبع لخيارهم، وشرارهم تبع لشرارهم"(١٠)، وفي فضل عالم قريش: عن أبي الأحوص عن عبدالله بن مسعود مرفوعا قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا قريشا؛ فإن عالمها يملأ الأرض علما"(١١).

وقريش هي القبيلة المكية المعروفة(١٢)، والمشهورة بالشجاعة، والرأي الصائب، والحزم الثابت، والقيام بعظائم الأمور، والمطالب العالية، والمصادر السامية(١٣)، وقد ذهب الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت ٤٥٨هـ) إلى أنه لم يجد فيمن بعد الصحابة

= قتادة عن أنس بلفظ: "إن الملك في قريش" الحديث. وأخرج أحمد هذا اللفظ مقتصرا عليه من حديث أبي هريرة ومن حديث أبي بكر الصديق بلفظ: "الأئمة من قريش"، ورجاله رجال الصحيح؛ لكن في سنده انقطاع، وأخرجه الطبراني، والحاكم من حديث علي بهذا اللفظ الأخير. [المعجم الكبير]، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت ٣٦٠)، تح. حمدي بن عبدالمجيد السلفي، الموصل، ط. ٢/ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م. وانظر أيضا: [فتح الباري: ١١٤/١٣] لأبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، تح. محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(١٠) وفي رواية أخرى عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم"، [صحيح مسلم: ١٤٥١/٣]، أبو الحسين مسلم النيسابوري (ت ٢٦١)، تح. محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت. وانظر: [صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان: ١٥٩/١٤]، أبو حاتم محمد بن حبان (ت ٣٥٤)، تح. شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. ٢/ ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

(١١) [كتاب السنة: ٦٣٥/٢-٦٣٧]، للحافظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني (ت ٢٨٧)، (باب في فضل عالم قريش)، تح. محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط. ١/ ١٤٠٠هـ. والحديث مروي عن عبدالله بن مسعود مرفوعا، وله طرق أخرى.

(١٢) انظر في فضائل قريش: [المنمق في أخبار قريش]، لمحمد بن حبيب (ت ٢٤٥)، برواية أبي سعيد السكري، تح. خورشيد أحمد فاروق، ١٩٦٤م. ولا غرو فإن قريشا خصها الله بالفضل والمن على سائر الخلق، وبعث منها نبي الرحمة، وأنزل عليه القرآن بلسانها، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ**﴾ [**إبراهيم**: ٤]، فلغة قريش أفصح اللغات، ونسبها أصح الأنساب.

(١٣) انظر شرح ألفاظ الأحاديث الواردة في فضل قريش: [فيض القدير شرح الجامع الصغير: ٢٥٥/٣]، عبدالرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط. ١/ ١٣٥٦هـ.

قرشيا - ممن أشارت إليه الأحاديث - ملأ طباق الأرض علما، إلا الشافعي المطلبي محمد بن إدريس القرشي(١٤).

فكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي - رحمه الله - أنموذجا عاليا تحقق فيه قول رسول الله ﷺ، فهو العالم القرشي الذي ملأ الأرض علما، وصنف الكتب، وفتق العلم، وشرح الأصول والفروع، وهو ما ذهب إليه البيهقي في كتاب "مناقب الإمام الشافعي"(١٥).

فهذا مما ورد في "مكانة مكة" و"منزلة أهل مكة".

٣ - نماذج من "اتجاهات التأليف" في المكانة:

ألف كثير من العلماء كتبا ومصنفات في "مكانة مكة المكرمة"، وعنوا عناية خاصة بذكر بقاعها، وآثارها، ومشاهير أعلامها من الصحابة والتابعين والسلف الصالح من العلماء، والمجاورة بها(١٦)، وتلقي العلم عن الشيوخ بجوار حرمها، والعتب على من تركها إلى غيرها من بقاع الأرض سوى المدينة النبوية...

واتجاهات التأليف العلمي في فضائل مكة ومكانتها كثيرة، منها الاتجاه الفقهي الذي يتعلق بالشعائر(١٧)، ومنها الاتجاه التاريخي الذي يتصل بالمآثر والبقاع، ومنها الاتجاه المعماري الذي يستعرض خطط البناء والتوسعة، ومنها اتجاه الترجمة للرجال الذين جاوروا مكة،

---

(١٤) [بيان خطأ من أخطأ على الشافعي: ٢٦]، الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٣٨٤-٤٥٨)، تح. خليل إبراهيم ملا خاطر، مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ط. ١/ ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

(١٥) [مناقب الإمام الشافعي: ١/٢٩-٣٠]، للإمام البيهقي، مكتبة دار التراث بمصر، ١٣٩١هـ.

(١٦) انظر ما ذكره أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري في مقدمة تفسيره، من أنه صمم العزم على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله، والتوجه تلقاء مكة. [الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ مقدمة الكتاب]، دار المعرفة، بيروت.

(١٧) انظر على سبيل المثال كتاب [المحلى بالآثار]: "مسألة: مكة أفضل بلاد الله ...، ومكة أفضل بلاد الله تعالى، نعني الحرم وحده، وما وقع عليه اسم عرفات فقط، وبعدها مدينة النبي عليه السلام، نعني حرمها وحده، ثم بيت المقدس، نعني المسجد وحده. هذا قول جمهور العلماء". [المحلى بالآثار: ٥/٣٢٥-٣٣٣]، لابن حزم الأندلسي.

أو علموا فيها، أوتعلموا من شيوخها...، ومنها الاتجاه الجغرافي الذي يستعرض حدود البلد الأمين وجباله ووديانه وهواءه وموقعه(١٨).

٤ - المنهج المتبع في هذا البحث: القصر لا الحصر

إن المؤلفات في هذه الاتجاهات وغيرها كثيرة جدا لا تكاد تحصر؛ فمنها المطبوع، ومنها المخطوط، ومنها القديم، ومنها الحديث، ومحاولة حصرها لا يتسع لها إلا بحث أكاديمي مفصل، يستقصي ما كتب قديما وحديثا(١٩)، ويصنفه بحسب مادته العلمية.

وسأقتصر في هذا البحث المحدود على عرض بعض النماذج من اتجاهات العلماء في التصنيف في مكانة مكة المكرمة دون غيرها، وذلك لوفرة المصنفات في هذا الباب، وإفاضة المؤلفين في استعراض مزايا البلد الأمين، وتعدد الاتجاهات الذي يفرضه المجال العلمي للتأليف في الفضائل والمزايا.

سأقتصر في هذا البحث المحدود على عرض بعض النماذج دون غيرها

قلت: سأقتصر في هذا البحث المحدود على عرض بعض النماذج دون غيرها، مقسِّمًا ما وقع بين يدي من المؤلفات إلى ثلاثة اتجاهات:

---

(١٨) وموقعه في مركز العالم، وهذا الاتجاه الجغرافي يبرهن على مركزية مكة، وهي مركزية لفتت اهتمام الجغرافيين المسلمين في سياق تقسيمهم لأقاليم الأرض. ينظر هنا على سبيل المثال لا الحصر منهج "ابن حوقل" في تقسيمه الجغرافي، وحديثه عن فضل موقع مكة؛ يقول: "بدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليما واحدا؛ لأن الكعبة فيها ومكة "أم القرى"، وهي واسطة هذه الأقاليم عندي"، وكتابه "صورة الأرض" من أهم الكتب التي ألفت في الجغرافيا السكانية في القرن الرابع الهجري. ينظر: [صورة الأرض] لأبي القاسم بن حوقل، بيروت، مكتبة الحياة، ١٩٧٩م. وينظر أيضا: [صفة جزيرة العرب] لأبي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت ٣٤٥)، وقد جمع المؤلف في كتابه ما لجزيرة العرب - بسبب وقوع مكة والبلد الحرام فيها - من فضائل، وذكر أقاليمها، وطبائع أهلها، وذكر أطول مدن العرب المشهورة.

(١٩) أما ما أنجز حديثا فيتعذر حصره، فمنه المطبوع، ومنه الرسائل الجامعية غير المنشورة، ومما أنجز حديثا على سبيل المثال لا الحصر رسالة دكتوراه في موضوع "الأحاديث الواردة في فضائل مكة"، أنجزها الباحث د. محمد عبدالله عائض عوض سنة ١٤١٩هـ، وأشرف عليها د. عوض بن أحمد الشهري، بكلية الحديث الشريف، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

الأول: يستعرض فضائل مكة الدينية، وما تمتاز به من أركان ومواقف ومشاهد تؤدى فيها الشعائر، وحرمات تعظم وتوقر.

الثاني: يركز على الجانب التاريخي للبلد الأمين، وما فيه من بقاع ومآثر ومشاهد وأيام ووقائع.

الثالث: يخص بالذكر والأهمية الرجال الذين جاوروا بمكة، أو تلقوا فيها علما أوعلموا بها علوما، أوصنفوا مصنفات، وذلك من خلال تصنيف تراجم للرواة وطبقات المحدثين.

غير أن هذه الأقسام الثلاثة قصر لا حصر؛ لأن مناهج العلماء في التأليف في مكانة مكة المكرمة أوسع من أن تنحصر في هذه القسمة الثلاثية، وأكثر تفصيلا.

١ - "مكانة مكة الدينية" في بقاعها الطاهرة وشعائرها الدينية:

ألف في "مكانة مكة" أبو سعيد محمد بن تميم الهمداني الجندي المتوفى في حدود سنة ثمان وثلاثمئة(٢٠) كتاب "فضائل مكة"(٢١)، وأبو محمد الخزاعي المكي، ومحمد بن أبي بكر اللباد المالكي اللخمي

---

(٢٠) الجندي المقرئ المحدث الإمام أبو سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم بن مفضل بن سعيد بن الإمام عامر بن شراحيل الشعبي الكوفي ثم الجندي، حدث عن الصامت بن معاذ الجندي ومحمد بن أبي عمر العدني وإبراهيم بن محمد الشافعي وأبي حمة محمد بن يوسف وسلمة بن شبيب. وروى القراءات عن طائفة كالبزي وغيره. أخذ عنه أبو بكر بن مجاهد وعبدالواحد بن أبي هاشم، وحدث عنه أيضا أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم البستي وأبو بكر بن المقرئ وأبو جعفر العقيلي وآخرون. قال العقيلي: "قدمت مكة ولأبي سعيد الجندي حلقة بالمسجد الحرام"، وقال الحافظ أبو علي النيسابوري: "هو ثقة"، وقال أبو القاسم بن مندة: "توفي سنة ثمان وثلاثمئة": [سير أعلام النبلاء: ٢٥٨/١٤]، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي تح. شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.٩/ ١٤١٣هـ.

(٢١) [كشف الظنون: ١٢٧٨/٢]، مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي، المعروف بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

الإفريقي، والشيخ محمد بن علي بن علان المكي الصديقي المتوفى سنة سبع وخمسين وألف(٢٢).

ونسب أبو الفداء إسماعيل بن كثير في "البداية والنهاية"(٢٣)، والسهيلي في "الروض الأنف"(٢٤) إلى أبي الوليد الأزرقي كتابا بعنوان "فضائل مكة"(٢٥)، وذكر ابن الأبار في كتاب "التكملة لكتاب الصلة"، أن يحيى بن محمد بن سعادة من أهل قرطبة، المعروف بأبي بكر بن فصال، سمع بمكة من أبي الحسن رزين بن معاوية الأندلسي تأليفه في "فضائل مكة" ... وتوفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمئة(٢٦). ونسب إلى الحافظ أبي محمد عبدالغني المقدسي (ت ٦٠٠هـ) كتاب "فضائل مكة" في أربعة أجزاء(٢٧).

وعقد شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري التيمي القرشي (ت ٧٣٣هـ) الباب الثاني في "خصائص البلاد" من القسم الخامس من الفن الأول من كتابه المشهور "نهاية الأرب في فنون الأدب" للحديث عن مكة وفضائلها، قال: "ولنبدأ من ذلك بمكة ويثرب، وأعرب عما أنقله من فضلهما، ولا أغرب، وأصله بذكر البيت المقدس والمسجد

---

(٢٢) انظر التفصيل في: [كشف الظنون: ٢/١٢٧٨]، و[معجم البلدان: ٣/٦٣]، لأبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي (ت ٦٢٦)، دار الفكر، بيروت. و[الوافي بالوفيات]، لأبي الصفاء صلاح الدين الصفدي (ت ٧٦٤)، فيسبادن، ط. ٢ / ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

(٢٣) [البداية والنهاية: ٢/١٨٦]، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤)، مكتبة المعارف، بيروت.

(٢٤) [الروض الأنف: ١/٢٢٣]، عبدالرحمن بن عبدالله الخثعمي السهيلي (ت ٥٨١)، تح. مجدي منصور الشورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

(٢٥) ولعله كتاب "تاريخ مكة" الذي حققه رشدي صالح ملحس، أو ما يعرف بـ"خطط الأزرقي".

(٢٦) [التكملة لكتاب الصلة: ٤/١٧١]، لأبي عبيدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، ابن الأبار البلنسي، تح. د. عبدالسلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

(٢٧) انظر ترجمة الحافظ عبدالغني المقدسي في [البداية والنهاية: ١٣/٣٨-٣٩]، و[المعين في طبقات المحدثين: ١/١٨٨]، لأبي عبدالله الذهبي (ت ٧٤٨)، تح. د. همام عبدالرحيم سعيد، دار الفرقان، الأردن، ط. ١/ ١٤٠٤، و[طبقات الحفاظ: ١/٤٨٨]، لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٤٠٣هـ.

الأقصى، ولا أشترط الاستيعاب؛ لأن فضائلها لا تحصى. فأما مكة - شرفها الله تعالى وعظمها - ففضائلها مشهورة بينة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧] (٢٨)، ثم قال: "ذكر شيء من خصائص مكة: من خصائصها أن الذئب فيها يروع الظبي، ويعارضه، ويصيده، فإذا دخل الحرم كف عنه. ومنها أنه لا يسقط على الكعبة حمام إلا إن كان عليلا؛ وأن عادة الطير إذا حاذت الكعبة أن تفترق فرقتين ولا تعلوها، والله أعلم"(٢٩).

وممن ألف في "مكانة مكة" قبل أولئك جميعا، أبو سعيد الحسن بن يسار البصري (ت ١١٠هـ)(٣٠)، الذي كتب رسالة لطيفة تعد فاتحة لعناية العلماء في زمن مبكر بالتأليف في فضائل البلد الأمين، ومكانة

---

(٢٨) [نهاية الأرب في فنون الأدب: ١/٣١٩-٣٢٠].

(٢٩) نفسه.

(٣٠) هو الحسن بن يسار مولى الأنصار، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنه، ومات بالبصرة سنة عشر ومئة، وهو ابن ثمان وثمانين سنة، وروي أن أمه كانت خادمة لأم سلمة زوج رسول الله ﷺ رضي الله عنها، وربما بعثتها في حاجة، فيبكي الحسن، فتناوله ثديها، فرأوا أن تلك الحكم التي رزقها الحسن من بركات ذلك، وروي أن أم سلمة أخرجته إلى عمر رضي الله عنه فقال: "اللهم فقهه في الدين، فليعلم، وحببه إلى الناس"، وسئل أنس بن مالك عن مسألة فقال: "سلو الحسن"، وعن أبي همام الكلاعي قال: "مر الحسن ببعض القراء على بعض أبواب السلاطين، فقال: "أفرجتم عما بكم، وفرطحتم نعالكم، وجئتم بالعلم تحملونه على رقابكم إلى أبوابهم، فتزهدوا فيكم. أما إنكم لو جلستم في بيوتكم حتى يكونوا هم الذين يتوسلون إليكم لكان أعظم لكم في أعينهم". قال أبو قتادة العدوي: "الزموا هذا الشيخ - يعني الحسن - فما رأيت أحدا أشبه رأيا بعمر بن الخطاب منه". وروى بلال بن أبي بردة قال: "سمعت أبي يقول: والله لقد أدركت أصحاب محمد ﷺ، فما رأيت أحدا أشبه أصحاب محمد ﷺ من هذا الشيخ، يعني: الحسن". وقال علي بن زيد: "أدركت عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب ويحيى بن جعدة والقاسم بن محمد وسالما في آخرين، فلم أر مثل الحسن، ولو أن الحسن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ وهو رجل لاحتاجوا إلى رأيه". [طبقات الفقهاء: ١/ ٩١-٩٢]، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت ٤٧٦)، تح. خليل الميس، دار القلم، بيروت. وتنسب إلى الحسن البصري رسالة في [فضائل مكة: ١٢-٢٣]، تح: سامي مكي العاني، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠٠هـ.

أهله، فقد ضمنها ما أنزل الله من القرآن في شأن مكة، وما ورد عن النبي ﷺ من الأخبار في منزلتها ومكانة أهلها ومن جاورها. وقد كتبها؛ ليرغب فيها رجلا من الزهاد أراد الخروج من مكة إلى اليمن، ألا يغادرها، وألا يفضل عليها غيرها. والرسالة مروية بسند متصل يبتدئ بالحسن بن جعفر الهمداني، وينتهي إلى أبي هريرة الباجي، فقد كتب الحسن بن أبي الحسن البصري - رحمه الله - إلى رجل من الزهاد كان يسكن مكة المكرمة، وكان له فضل ودين وذكر، ولم يكن له في الدنيا عمل إلا عبادة الله تعالى، وأنه أراد الخروج من مكة إلى اليمن، فبلغ ذلك الحسن، وكان يؤاخيه في الله تعالى، فكتب إليه كتابا يبدي فيه استيحاشه من رغبة صاحبه في الخروج من مكة والانزعاج عنها، وكراهته لذلك وإنكاره عليه فعله، ويرغبه في المقام بمكة؛ فمما خاطبه فيها قوله له: إياك يا أخي والخروج منها والانزعاج عنها؛ فإنك في خير أرض، وأحب أرض الله تعالى إليه، وأفضلها، وأعظمها قدرا، وأشرفها عنده، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياك للخيرات".

ولم يقف نصح أبي سعيد لصاحبه عند حد الإنكار عليه، ولكنه جاوز ذلك إلى تعداد أوجه مكانة مكة، وامتيازها عن سائر البقاع، قائلا: "اعلم يا أخي أن الله تعالى فضل مكة على سائر البلاد، وأنزل ذكرها في كتابه العزيز في مواضع عديدة؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾

[البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، وقال تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وقال تبارك وتعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقال تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] ... فهذه الآيات يا أخي أنزلها الله تعالى كلها في مكة خاصة، ولم ينزلها لبلد سواها. ثم أفيدك ... ما جاء عن النبي ﷺ من الأخبار في فضائل مكة، وفضائل أهلها، ومن جاورها: اعلم ... أن رسول الله ﷺ قال حين خرج من مكة، وقد وقف على الحزورة، واستقبل الكعبة: "والله إني لأعلم أنك أحب بلد الله إلي، وأنك أحب أرض الله إلى الله عز وجل، وأنك خير بقعة على وجه الأرض، وأحبها إلى الله تعالى، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت"(٣١)، وكل نبي من الأنبياء

---

(٣١) عن أحمد بن خليد قال: حدثنا الحميدي قال: حدثنا عبدالعزيز بن محمد الدراوردي عن محمد بن عبدالله بن أخي الزهري عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن عبدالله بن عدي بن الحمراء قال: "وقف رسول الله على الحزورة، فقال: والله إني لأعلم أنك خير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت". لم يرو هذا الحديث عن ابن أخي الزهري إلا الدراوردي [المعجم الأوسط: ١/١٤٤]، لأبي القاسم سليمان بن أيوب الطبراني (ت٣٦٠)، تح. د. محمود الطحان، الرياض، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م. وأورد النيسابوري في مستدركه راوي الحديث عبدالله بن عدي بن الحمراء، وذكر مناقبه: [المستدرك على الصحيحين: ٣/٣١٥]، الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥)، تح. مصطفى عبدالقادر عطا، بيروت، ط. ١، ١٤١١هـ-١٩٩٠م. وأورده الترمذي في سننه في باب "في فضل مكة"، وقال: حديث حسن غريب صحيح: [سنن الترمذي: ٥/٧٢٢]، أبو عيسى الترمذي (ت ٢٧٩)، تح. أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

عليهم الصلاة والسلام إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم إلى مكة، وما من نبي هرب من أمته إلا هرب إلى مكة، فعبد الله تعالى بها عند الكعبة حتى أتاه اليقين ....، وما على وجه الأرض بلدة يرفع الله فيها الحسنة الواحدة غاية ألف حسنة إلا مكة، ومن صلى فيها صلاة رفعت له مئة ألف صلاة، ومن صام فيها كتب له صوم مئة ألف يوم، ومن تصدق فيها بدرهم كتب الله له مئة ألف درهم صدقة، ومن ختم فيها القرآن مرة واحدة كتب الله تعالى له مئة ألف ختمة، وكل أعمال البر فيها كل واحدة بمئة ألف، وما أعلم بلدة يحشر الله تعالى فيها يوم القيامة من الأنبياء والأصفياء والأتقياء والأبرار والصديقين والشهداء والصالحين والعلماء والفقهاء والفقراء والحكماء والزهاد والعباد والنساك والأخيار والأحبار من الرجال والنساء ما يحشر الله تعالى من مكة، وإنهم يحشرون وهم آمنون من عذاب الله تعالى، وليوم واحد في حرم الله تعالى وأمنه، أرجى لك وأفضل من صيام الدهر كله وقيامه في غيرها من البلدان. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى"(٣٢)، ولم يذكر شيئا من المساجد غيرها وقال ﷺ: "صلاة في مسجدي هذا بألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام؛ فإن الصلاة فيه بمئة ألف صلاة في غيره"(٣٣)، وما على وجه الأرض بقعة ينزلها كل يوم من عند الله تعالى عشرون ومئة رحمة: ستون للطائفين،

---

(٣٢) [صحيح مسلم: ١٠١٤/٢]، باب [لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد]، حدث عمرو الناقد وزهير بن حرب جميعا عن ابن عيينة قال عمرو: حدثنا سفيان عن الزهري عن سعيد عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ: "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى. ورواه الترمذي أيضا في [سننه: ١٤٨/٢]، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣٣) [صحيح مسلم: ١٠١٢/٢]، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة: عن عمرو الناقد وزهير بن حرب واللفظ لعمرو قالا: حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، يبلغ به النبي ﷺ قال: "صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام". ورواه الترمذي في [سننه: ١٤٧/٢]، وقال: حديث حسن صحيح.

وأربعون للمصلين، وعشرون للناظرين إلى الكعبة إلا مكة، والنظر إلى الكعبة عبادة؛ قال رسول الله ﷺ: "من نظر إلى بيت الله إيمانا واحتسابا وتصديقا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ..."(٣٤)، ولا يدخل الكعبة أحد إلا برحمة الله، ولا يخرج منها إلا بمغفرة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ أي: من النار، وما على وجه الأرض بلدة يستجاب فيها الدعاء في خمسة عشر موضعا إلا مكة، أولها: جوف الكعبة، وعند الحجر الأسود، وعند الركن اليماني، وخلف المقام، وفي الملتزم، وعند باب بئر زمزم، وعلى الصفا والمروة، وبين الصفا والمروة، وبين الركن، وبمنى، وبعرفات، وفي المشعر الحرام ...، فاغتنم الدعاء فيها؛ فإنها المواضع التي لا يرد فيها الدعاء، وهي المشاهد العظام التي ترجى فيها المغفرة.

واعلم يا أخي أنه لا يخرج منها أحد إلا ندم؛ قال رسول الله ﷺ: "المقام بمكة سعادة، والخروج منها شقاوة "(٣٥). فاثبت مكانك، وإياك والقلق والضجر ...".

هذه الرسالة على وجازتها تبين مذهب الصلحاء والعلماء في تعظيم البلد الحرام، وضرورة لزومه، وخطورة مغادرته إلى ما سواه، وطريقتهم العقدية الصحيحة في النظر إليه، وحمل الناس على جملة

---

(٣٤) [مصنف عبدالرزاق: ١٣٥/٥]، باب رؤية البيت، عن عبدالرزاق عن ابن جريج قال: أخبرني محمد بن علي قال: حدثت أنه "من نظر إلى البيت تعظيما له، ومعرفة لحقه كتب له بها حسنة ومحي عنه بها سيئة، ومن جاءه زائرا له تعظيما له ومعرفة له تحاتت ذنوبه حين ينظر إليه كما يتحات الورق عن الشجر"، عن عطاء ومجاهد قالا: "النظر إلى البيت عبادة، وتكتب له بها حسنة، وتصلي عليه الملائكة ما دام ينظر إليه". [مصنف عبدالرزاق] أبو بكر عبدالرزاق الصنعاني (ت ٢١١)، تح. حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط.٢/ ١٤٠٣هـ. والحديث أورده علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧) في [مجمع الزوائد: ٢٩٢/٣]، ط. دار الريان للتراث، ودار الكتاب العربي، القاهرة/بيروت، ١٤٠٧هـ. وقال الهيثمي: وفيه يوسف بن السفر، وهو متروك.

(٣٥) "المقام بمكة سعادة والخروج منها شقاوة"، قال القاري: لا أصل له في المرفوع، والله أعلم. انظر: [كشف الخفاء: ٢٨٢/٢]، لإسماعيل بن محمد العجلوني (ت ١١٦٢)، تح. أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط. ١٤٠٥/٤هـ.

من الآداب والقواعد التي ينبغي لهم أن يلتزموا بها عند وجودهم بها توقيرا وتعظيما واحتراما، ورجاء لبركاتها، وثواب القيام بأعمالها وشعائرها. وكتابة الرسالة طريقة تربوية سديدة، لا تقتصر على المخاطب بها، ولكنها تتعداه إلى نصح الأمة كلها، وتذكيرها بمكانة مكة، وتحذيرها تفضيل غيرها من الأمصار عليها.

أما ما أورده العلماء في حديثهم عن منزلة المدينة النبوية(٣٦)، وما عرفته من قيمة دينية مستمدة من دعاء النبي ﷺ لها ولأهلها، وما فيها من الفوائد الدنيوية والأخروية، على غرار "مكانة مكة"، فلا يعني أنها أفضل من مكة، فقد روي عن عبدالله بن أبي قتادة عن أبيه أن رسول الله ﷺ صلى بأرض سعد بن أبي وقاص بأصل الحرة عند بيوت السقيا، ثم قال: "اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لأهل مكة، وإن محمدا عبدك ونبيك ورسولك دعاك لأهل المدينة بمثل ما دعاك به إبراهيم عليه السلام لأهل مكة، يدعوك أن تبارك لهم في صاعهم، وفي مدهم، وفي ثمارهم، اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة ....، اللهم قد حرمت لابتيها كما حرمت على لسان إبراهيم عليه السلام الحرم"(٣٧)، فالنص صريح في الدلالة على أن النبي ﷺ يسأل الله عز وجل أن يحبب إليه المدينة كما حبب إليه مكة المكرمة من قبل، وقد نزل المدينة منزلة دينية بعد مكانة مكة المكرمة، ويبدو ذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ

---

(٣٦) انظر: [فضائل المدينة: ١٧-٢٣]، لأبي سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم الجندي (ت ٣٠٨)، تح. مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، ط. ١/ ١٤٠٧هـ. ولابن عساكر قاسم بن علي (ت ٦٠٠) كتاب في "فضائل المدينة". انظر: [كشف الظنون: ٢/١٢٧٨]. و[نهاية الأرب في فنون الأدب: ٣١٩/١ وما بعدها]، لشهاب الدين النويري.

(٣٧) [صحيح البخاري: ١٤٢٨/٣]، عن عائشة أن النبي ﷺ قال: "اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها، وانقل حماها فاجعلها بالجحفة". [صحيح البخاري]، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت ٢٥٦)، تح. د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط. ٣/ ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

أنه قال: "صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام"، فجاء هذا الاستثناء في الحديث للدلالة على فضل مكة قبل المدينة.

وقد فصل العلماء(٣٨) في الحديث عن منزلة المدينة النبوية، واستقصوا النصوص الدالة على فضائلها الدينية، ولكن ذلك كله لم يخرج مكة المكرمة من الفضل والشرف، فإن لمكة مكانة عالية في قلب النبي ﷺ، وهو في دعائه الوجيز الجامع لأهل المدينة أن يشملهم ما شمل أهل مكة منذ عهد إبراهيم عليه السلام من دعاء بالبركة في الصاع والمد والثمار، وأن يقذف محبة المدينة في القلب بدرجة محبة مكة؛ صرح بأن مكة أحب إليه ﷺ لحب الله عز وجل لها، وقد عقد أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي في سننه الكبرى بابا لفضائل مكة والمدينة، قال فيه: "فضائل مكة والمدينة: فضل مكة: ... عن الزهري عن أبي سلمة عن عبدالله بن عدي بن حمراء الزهري قال: رأيت رسول الله ﷺ، وهو على راحلته واقف يقول: "والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت"(٣٩)، ثم يعود عليه الصلاة والسلام إلى مكة بلد الله الحرام فاتحا، لا يخاف إلا الله رب العالمين، بعد أن انتشر الإسلام، وضعفت شوكة الكفار والمشركين(٤٠).

---

(٣٨) [نهاية الأرب في فنون الأدب: ١/٣٢٠-٣٢٥].

(٣٩) [صحيح ابن حبان: ٩/٢٢]، باب فضل مكة.. و[السنن الكبرى: ٢/٤٧٩]، لأبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣)، تح. عبدالغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٤١١هـ-١٩٩١م. وأورده الحاكم النيسابوري في [المستدرك على الصحيحين: ٣/٨]، وقال: "حديث صحيح على شرط الشيخين".

(٤٠) انظر خبر هذا الخروج في: [التدوين في أخبار قزوين: ٢/٣٤]، للإمام الرافعي عبدالكريم بن محمد بن عبدالكريم أبو القاسم الرافعي القزويني (ت ٦٢٣)، بعناية عزيز الله العطاردي، ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت: "عن منصور بن زاذان، عن ابن سيرين عن ابن عباس: إن رسول الله ﷺ، خرج من المدينة، إلى مكة لا يخاف إلا الله رب العالمين".

٢- "قيمة مكة التاريخية"، من خلال مصادر التأريخ لها:

لا شك أن لعلم التاريخ قيمة قصوى في الحال والمآل(٤١)، وإذا ثبت ذلك علم السبب في إيلاء العلماء تاريخ مكة والمدينة قيمة لا تدانيها في تأريخ الأمصار والفتوحات والبلدان قيمة، وتنزيلهم لأيامهما وشهورهما وأعوامهما منزلة تفوق منزلة الأزمنة السابقة واللاحقة، فهو تأريخ أحق بالتنويه، وأصدق في الوجاهة والتوجيه، وأصبح من المعلوم المقرر عند العلماء أن استعراض الأحداث العظام بمكة والمدينة، وذكر مشاهير الرجال بهما والصالحين، وما رافق ذلك من غزوات وفتوحات وأخبار، لما تستسقى به الرحمة، ويستدفع به كل بلاء ونقمة، وأن الاشتغال بنشر أخبار الحرمين لمن سعادة المرء في الدارين(٤٢).

مكانة مكة المكرمة في إيثارها بالتأريخ وتفضيلها في ذلك على الأمصار:

أما تاريخ مكة فقد قيد في نوعين من مصادر التاريخ: مصادر عامة ركزت على الجانب الزماني، وأرخت لمكة والأمصار الأخرى، ومصادر خاصة ركزت على الجانب المكاني، وخصت مكة بالذكر دون سائر الأمصار تفضيلا لها وتعظيما لحرماتها.

---

(٤١) ذكر المؤرخ محمد بن محمد بن عبدالواحد الشيباني (ت ٦٣٠) في كتابه "الكامل في التاريخ" قيمة علم التاريخ وأهميته في حياة الأمم، وأنكر على من صغر شأنه وأهانه قائلا: "رأيت جماعة ممن يدعي المعرفة ....، يحتقر التواريخ ويزدريها ... ظنا منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار، ....، وهذه حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره ....، ومن رزقه الله طبعا سليما، وهداه صراطا مستقيما، علم أن فوائدها كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة": [الكامل في التاريخ: ١/٩]، تح. أبو الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ٢/ ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

(٤٢) انظر ما ذكره شمس الدين السخاوي في موضوع قيمة التأريخ للمدينة النبوية ورجالها، في كتابه: [التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: ١/٣-٧]، شمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٩٩٣م، وكذا كتاب [المغانم المطابة في أخبار طابة]، لمجد الدين الفيروز آبادي اللغوي، وكتاب [الإعلام بمن دخل المدينة من الأعلام]، للعفيف عبدالله بن محمد بن أحمد بن خلف المطري.

أ - التاريخ العام ومنهج الحوليات:

من الأمثلة على هذا النوع من المصادر "تاريخ خليفة بن خياط"(٤٣) للمؤرخ الأخباري المحدث الثقة الحافظ أبي عمرو خليفة بن خياط العصفري (ت ٢٤٠هـ)(٤٤)، الذي وصلنا تاريخه برواية بقي بن مخلد. وقيمة تاريخ ابن خياط في قدمه، وفي أنه من أوائل المؤرخين الذي كتبوا في تاريخ بلاد المسلمين، وجمع بين التحديث والتأريخ، فقد روى عنه جمع من علماء الحديث(٤٥).

ويعتمد خليفة في تاريخه منهج "الحوليات"، وهو منهج يقوم على سوق أخبار كل سنة على حدة، ابتداء من السنة الأولى، باسطا ما جرى فيها من أحداث ومغاز، فإذا فرغ من ذلك، ذكر من أدركتهم الوفاة في تلك السنة، وانتقل إلى السنة التالية(٤٦).

---

(٤٣) [تاريخ خليفة بن خياط]، برواية بقي بن مخلد، تح. د. سهيل زكار، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي بسوريا، سلسلة إحياء التراث القديم، رقم: ١٧.

(٤٤) يعرفه لنا الحافظ محمد بن طاهر بن القيسراني المتوفى (ت٥٠٧) في كتابه [تذكرة الحفاظ: ٤٣٦/٢] بقوله: "الحافظ الإمام أبو عمرو العصفري المعروف "بشباب" محدث نسابة أخباري علامة، صنف التاريخ والطبقات وسمع ابن عيينة ويزيد زريع وغندرا وطبقتهم، وروى عنه البخاري وبقي بن مخلد وعبدان وأبو يعلى، وطائفة قال ابن عدي: مستقيم الحديث صدوق من متيقظي الرواة. قال مطين: مات سنة أربعين ومئتين رحمه الله تعالى، يقع لنا حديثه عاليا من مسند أبي يعلى الموصلي". [تذكرة الحفاظ: ٤٣٦/٢]، تح. حمدي عبدالمجيد إسماعيل السلفي، دار الصميعي، الرياض، ط. ١/ ١٤١٥هـ. وقال عنه الحافظ شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨) في (ميزان الاعتدال): "خليفة بن خياط العصفري البصري الحافظ شباب صاحب التاريخ، عن جعفر بن سليمان ومعتمر بن سليمان ويزيد بن زريع وخلق، وعنه البخاري وأبو يعلى وعبدان وخلق، غمزه ابن المديني بعض الغمز، فقال: لو لم يحدث لكان خيرا له... وقال ابن عدي: صدوق متيقظ، وقال مطين: مات سنة أربعين ومئتين". [ميزان الاعتدال في نقد الرجال: ٤٥٧/٢]، تح. علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٩٩٥م.

(٤٥) انظر على سبيل المثال: [سير أعلام النبلاء: ٢٢٥/١٢].

(٤٦) انظر: التعريف بمنهج "الحوليات" في المقدمة التي عقدها د. سهيل زكار لتحقيقه كتاب تاريخ خليفة بن خياط.

والذي دفع بخليفة إلى كتابة تاريخه دافع علمي معرفي، وهو أن علم التاريخ عند المسلمين وسيلة الناس إلى معرفة أمر حجهم وصومهم، وانقضاء عِدَدِ نسائهم ومحل ديونهم(٤٧). لقد دفعت الحاجة بالناس إلى التأريخ في الدهر الأول، أن اتخذوا من هبوط آدم من الجنة منطلقا، فلم يزل ذلك حتى بعث الله نوحا، فأرخوا من دعائه قومه، ثم أرخوا من الطوفان، ثم من تحريق إبراهيم، ثم من بنيان الكعبة، ثم من موت كعب بن لؤي، ثم من عام الفيل، ثم استقر التأريخ ابتداء من مهاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة.

فكان لمكة شأن كبير منذ القديم؛ لأن بنيان الكعبة فيها حدث عظيم في تاريخ الإنسانية، يستحق أن يكون مصدر تقويم زمني، والانتقال منها إلى المدينة أكبر حدث في التاريخ يستحق أن يكون مصدر تأريخ.

ومما يلحظ في طريقة خليفة في تاريخه أن موضوع "مكانة مكة وقيمتها التاريخية وتفضيلها على الأمصار"، هيمن على منهجه في سرد الأحداث وترتيبها؛ فقد رتب أسماء من استشهد ببدر بحسب أهمية الديار، فبدأ من قريش، من بني عبدالمطلب بن عبدمناف بن قصي، ثم انتقل إلى ديار الأنصار من بني عمرو بن عوف، ثم من بني الخزرج، فذكرهم بحسب أسماء ديارهم(٤٨)، وكذلك فعل في ترتيب من استشهد يوم أحد(٤٩)، ثم من قتل بخيبر(٥٠)، ثم من استشهد يوم الطائف(٥١)، ومن استشهد يوم اليمامة(٥٢).

ورتب مبعوثي رسول الله ﷺ إلى الأمصار، فبدأ بذكر بعث عثمان إلى أهل مكة سنة الحديبية، وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى أبي

---

(٤٧) [تاريخ خليفة بن خياط: ١/٥].
(٤٨) [تاريخ خليفة بن خياط: ١/١٩].
(٤٩) [المصدر نفسه: ١/٣٢].
(٥٠) [نفسه: ١/٥٢].
(٥١) [نفسه: ١/٦٢].
(٥٢) [نفسه: ١/٩١].

سفيان بمكة، ثم عروة بن مسعود الثقفي إلى الطائف، ثم استعرض أسماء المبعوثين إلى باقي الأمصار كاليمن واليمامة وكسرى وقيصر والإسكندرية والحبشة(٥٣).

ورتب عمال عمر بن الخطاب فبدأ بمكة، فذكر كل من عزله عمر، وولى غيره على مكة، ثم انتقل إلى ذكر من استخلف على المدينة، ثم ذكر من ولاه على اليمن والبصرة والبحرين(٥٤).

ورتب عمال عثمان بن عفان، فبدأ بمكة حيث ولّى عثمان على مكة علي بن عدي بن ربيعة، وولّى عليها أيضا خالد بن العاصي، وكان يستخلف زيد بن ثابت على المدينة إذا حج(٥٥). والأمثلة على هذا الترتيب كثيرة في تاريخ خليفة.

ب - التاريخ الخاص ومنهج "الخطط":

النوع الثاني من مصادر التأريخ لمكانة مكة، يعرف بخطط مكة التي تبحث في تاريخ البلد الأمين، وتطوره عبر العصور هندسة ومعمارا وديارا، وأهم المصنفات التي وضعت في هذا النوع من التأريخ خطط الأزرقي، وهو كتابه المسمى "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار"(٥٦) لأبي الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقي المكي (المتوفى في القرن الثالث للهجرة)، تتبع فيه إنشاء الكعبة ومعاهدها وآثارها، وألم بتاريخها وأماكنها وبقاعها منذ نشأتها، واقتفى أثر المحدثين في رواية الأخبار(٥٧).

---

(٥٣) [نفسه: ١/ ٧٤].

(٥٤) [نفسه: ١/ ١٥٣].

(٥٥) [نفسه: ١/ ١٩٤].

(٥٦) [أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار]، تح. رشدي صالح ملحس، دار الثقافة، بيروت، ط. ٣/ ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، ومطابع دار الثقافة بمكة المكرمة.

(٥٧) صنف في أخبار مكة المكرمة، قبل خطط الأزرقي، كتاب [أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه]، لأبي عبدالله محمد بن إسحاق بن أبي العباس الفاكهي (ت ٢٧٥)، تح. عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، دار خضر، بيروت، ط. ٢/ ١٤١٤هـ، أورد =

وسأتخذ الأزرقي في هذا المقام أنموذجا ومثالا للذين ألفوا في تاريخ مكة وأخبارها؛ لأنه من المتقدمين، ولأنه جمع بين فضيلة التحديث ومنهج التأريخ، ولتنويه العلماء به وبكتابه "أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار"؛ فهو ثابت النسبة إليه، ومعروف، ومتداول بين العلماء، والنقل عنه في كتبهم مشهور مستفيض(٥٨).

وقد امتد مجال التأريخ لبناء الكعبة المشرفة، في كتاب الأزرقي إلى قرون سحيقة، عندما هبط آدم عليه السلام إلى الأرض، وما تلا ذلك من بناء ولده البيت الحرام، ومرورا بإبراهيم عليه السلام، الذي أسكن إسماعيل وهاجر، وبجرهم الذين نزلوا مع أم إسماعيل في

= فيه مصنفه جملة من الأحاديث والأخبار والآثار حول فضائل مكة المكرمة وما فيها من الأماكن الطاهرة، بمنهج قريب من منهج المحدثين في إسناد الأخبار. أما الأزرقي فهو محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني المالكي، أحد الأخباريين وأصحاب السير، وتاريخ مولده غير معروف. روى عن جده أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقي ومحمد بن يحيى بن أبي عمر العدني وإبراهيم بن محمد الشافعي وعبدالله بن مسلمة القعنبي، وروى عنه أبو محمد إسحاق بن أحمد بن نافع الخزاعي، وإبراهيم بن عبدالصمد الهاشمي. كما أن تاريخ وفاته غير معروف، ولكن الثابت أنه كان حيا في سنة ٢٤٤هـ، كما يتضح من النصوص التي أوردها في كتابه "أخبار مكة"، وأقدم من ترجم للأزرقي هو ابن النديم. وقد ذكر له (كتاب مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها)، ووصفه بأنه كبير، ثم أبو سعيد السمعاني في كتاب الأنساب، الذي أثنى فيه على كتابه (أخبار مكة)، وقال: "قد أحسن في تصنيف ذلك الكتاب غاية الإحسان"، كما ترجم له أبو الطيب محمد بن أحمد الفاسي المكي في [العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين]، وقال: "إنه كان حيا في خلافة المنتصر محمد بن جعفر العباسي (٢٤٧ - ٢٤٨)". وقال الألباني: "لم نجد له ترجمة في شيء من المصادر المعروفة المطبوعة والمخطوطة إلا قول السمعاني في كتابه أخبار مكة"، ولذلك فقد عدّه الشيخ الألباني من ناحية روايته في حكم المستورين عند المحدثين الذين يستأنس بحديثهم ولا يحتج به. أما كتابه فلم يعرف للأزرقي من المؤلفات سوى كتاب (أخبار مكة)، وهو ثابت بالنسبة له، ومعروف ومتداول بين العلماء، والنقل عنه في كتبهم مشهور مستفيض، وهو من أوائل الكتب التي وصلت إلينا عن تاريخ مكة وخططها. انظر: [العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين]، لأبي الطيب محمد بن أحمد الفاسي المكي (٧٧٥-٨٣٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت. [الأنساب]، للسمعاني أبي سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢)، تعليق عبدالله عمر البارودي، دار الجنان، ١٤٠٨هـ.

(٥٨) انظر: كتاب [الأنساب]، للسمعاني في الترجمة للأزرقي والتنويه به وبكتابه.

الحرم، ثم بناء إبراهيم الكعبة، ودعائه لأهل مكة بالأمن والرزق، وولاية بني إسماعيل الكعبة بعده، وإمرة جرهم، ثم ولاية خزاعة، ثم ولاية قصي بن كلاب، ثم بداية انتشار الأصنام بعد إسماعيل، ثم مسير تبع إلى مكة، ثم مبدأ حديث الفيل، ثم بناء قريش الكعبة، ثم ما تلا ذلك من أحداث فتحها وحريقها وكسوتها وأركانها، وما جاء في فضل الطواف بها والصيام بجوارها، وما ورد في الحطيم والمقام والركن وحد المسجد الحرام وفضله، وذكر جدرانه، وتوسعته على عهد عمر وعثمان ثم على عهد الوليد بن عبدالملك ومن بعده، وذكر أساطينه وطاقاته وأبوابه وشرفاته وسقفه ومناراته وقناديله، ومنبره، وذكر صفة زمزم، وما كان عليه حوضها وحجرتها، وتعظيم الحرم وحدوده، وبيوت مكة، وسيول واديها، والبناء بمنى، وذكر مسجد الخيف وصفته وذرعه وفضل الصلاة فيه، ورمي الجمار، وأول من رمى، وحصى الجمار، ومسجد عرفة وأبوابه والموقف، ومزدلفة وحدودها والوقوف بها، والمشعر الحرام، وذكر حراء والطريق من حراء إلى ثور، وذكر مسجد البيعة، ومسجد الجعرانة، ومسجد التنعيم، وما جاء في مقبرة مكة ومنزلتها، وآبار مكة قبل زمزم وبعدها، والعيون التي أجريت في الحرم، وما ورد في أمر الرباع رباع قريش وحلفائها، ورباع القبائل، وذكر معلاة مكة ومسفلتها، وذكر الأخشبين والجبال والشعاب مما أحاط به الحرم.

فقد جاء وصف أبي الوليد الأزرقي لمكة في أخباره وخططه، مفصلا لا يكاد يترك دقيقة من دقائق مكة، ولا عظيمة من عظائمها إلا ذكرها، مستعرضا أزمنتها وأمكنتها عبر تاريخها الطويل(٥٩).

---

(٥٩) هذا مبلغ زمان أبي الوليد الأزرقي في القرن الثالث، وقد أضاف محقق الكتاب الأستاذ رشدي ملحس خمسة ملحقات إلى خطط الأزرقي ضمنها الزيادات التي طرأت على عمارة المسجد الحرام مما فات المصنف ذكرها، والسيول التي طرأت بعده حتى منتصف القرن الرابع عشر للهجرة، والتوسعة السعودية للمسجد الحرام حتى أواخر القرن الرابع عشر، فجاءت ملاحق المحقق الخمسة امتدادا لخطط الأزرقي وصلة وتكملة.

وقد تضمن تاريخ الأزرقي فوائد عدة، ينتفع بها كل من يدرس "منزلة مكة" من زاوية التاريخ أوالجغرافيا أوالأدب أو فن المعمار. فمن هذه الفوائد ما يتعلق بخدمة بيت الله الحرام كالرفادة والسقاية والإنارة والقيادة والحجابة واللواء، ومنها ما يتعلق بالأيام التاريخية الشهيرة كالطوفان والفيل والحمس وحلف الفضول وأحد والأحزاب وبدر وتبوك والحديبية، ومنها ما يتعلق بالأعلام والأقوام والقبائل وأسماء الأماكن داخل مكة وخارجها، من البقاع والآبار والبيوت والدور، والجبال والأمصار.

٣ - "قيمة مكة العلمية" من خلال الترجمة لرجالها ومشاهيرها:

لمكة المكرمة مكانة علمية منذ القديم(٦٠)، شهدت لها حركة الترجمة لرجالها ومشاهير علمائها ومن جاورها، من خلال "أدب التراجم". فقد حفظت لنا كتب التراجم والطبقات أسماء كثير من الأعلام وحملة العلم النبوي الذين جاوروا، وكان لهم أثر كبير في نشر علوم الدين في الأمصار الإسلامية المختلفة، وأصبحت كتبهم مراجع في التوثيق والتضعيف والتصحيح والتزييف.

فإن أولى العلم بعد كتاب الله عز وجل، سنن رسوله ﷺ؛ فهي المبينة لمراد الله عز وجل من مجملات كتابه، والدالة على حدوده والميسرة له. ومن أوكد آلات السنن المعينة عليها، والمؤدية إلى حفظها

---

(٦٠) قيمة مكة العلمية ومكانتها الثقافية، كانت معروفة في عصر ما قبل الإسلام؛ فقد عرفت الأسواق العامة التي كانت تقام للبيع والشراء وتبادل المنافع، في الحجاز وعكاظ، في سهل منبسط بين مكة والطائف، بل امتازت سوق عكاظ على سائر أسواق العرب بقربها من مكة مركز التجارة الكبرى في بلاد العرب، وباطمئنان التجار إلى الأمن على أنفسهم وأموالهم، وبكونها سوقا للخطابة والشعر أيضا. وبدخول الإسلام مكة بدأت تنعقد حلقات العلم في المسجد الحرام في مختلف العلوم الدينية، ونشطت حركة التدريس والإفتاء لأهل مكة والقادمين إليها، والمناظرات بين العلماء من المجاورين والوافدين عليهم. كما أنشئت الرباطات في بلاد الحجاز؛ لتوفير سبل الراحة لطلاب العلم والحجاج، والمدارس الكثيرة التي توالى إنشاؤها على مر العصور.

معرفة الذين نقلوها عن النبي ﷺ إلى الناس كافة، وحفظوها، وبلغوها عنه، وهم صحابته الذين وعوها وأدوها، حتى كمل بما نقلوه الدين، وثبتت بهم الحجة على الناس، فهم خير القرون، وخير أمة أخرجت للناس، وثبتت عدالة جميعهم بثناء الله ورسوله، لصحبة نبيه ونصرته، وهي تزكية عليا لا تزكية أفضل منها على وجه الأرض وأكمل؛ فقد قال الله تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ [الفتح: ٢٩]؛ فهذه صفة من بادر إلى تصديق النبي ﷺ والإيمان به، وآزره، وهاجر معه من أهل مكة، ونصره من أهل المدينة، وصحبه وأحسن الصحبة، وعلى رأس الصحابة: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، ثم الذين اتبعوهم بإحسان. فمن وقف على معرفة تراجم الصحابة والتابعين من المصرَين مكة والمدينة، ثم باقي الأمصار، ومعرفة عيون أخبارهم، فقد أخذ بحظ وافر من علم الخبر ومعرفة الحديث؛ لما فيه من الوقوف على معرفة أهل القرن الأول المبارك، ثم القرون التي تليه.

ومن كتب التراجم التي حفظت لنا أعلام الحديث النبوي، ممن كانوا بمكة أو خرجوا منها لأسباب كثيرة، من الخلفاء الراشدين والصحابة وكبار التابعين كتاب "تذكرة الحفاظ" لمحمد بن طاهر بن القيسراني (ت ٥٠٧)(٦١)، وكتاب "سير أعلام النبلاء" لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨)(٦٢)، الذي استعرض سير أعلام الإسلام.

وقبل أن أعرض نموذج ابن حبان في الترجمة لمشاهير مكة والأمصار، ونموذج الترجمة لمن نعتوا بالمكي، وهم منحدرون من

---

(٦١) [تذكرة الحفاظ]، تح. حمدي عبدالمجيد إسماعيل السلفي، دار الصميعي، الرياض، ط.١/ ١٤١٥هـ.

(٦٢) [سير أعلام النبلاء].

أصول غير مكية، أشير إلى أن أدب التراجم لرجال مكة وعلمائها ومشاهيرها كان أمرا معروفا متداولا شائعا بين العلماء، وقد ساد بينهم اصطلاح مخصوص يدل به على هؤلاء الرجال المترجم لهم، وهو اصطلاح "علماء مكة"، ومما ورد في ذلك: قول أبي القاسم هبة الله بن الحسن اللالكائي (ت ٤١٨): "من علماء مكة من علية التابعين عبيد بن عمير وعطاء وطاووس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وجابر بن زيد، فهؤلاء أصحاب ابن عباس"(٦٣). وقول محمد بن طاهر القيسراني (ت ٥٠٧) عن يوسف بن مالك: إنه "من علماء مكة"(٦٤). وقول أبي عبدالله الذهبي (ت ٧٤٨): "عن حاتم بن مالك الوراق قال: سمعت علماء مكة يقولون: محمد بن إسماعيل إمامنا وفقيهنا"(٦٥).

وقول مصطفى بن عبدالله القسطنطيني الرومي الحنفي، المعروف بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧): "وأما المفسرون من التابعين فمنهم أصحاب بن عباس، وهم علماء مكة المكرمة شرفها الله تعالى، ومنهم مجاهد بن جبر المكي المتوفى سنة ثلاث ومئة، قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، واعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وسعيد بن جبير المتوفى سنة أربع وتسعين، وعكرمة مولى بن عباس المتوفى بمكة سنة خمس ومئة، وطاووس بن كيسان اليماني المتوفى بمكة سنة ست ومئة، وعطاء بن أبي رباح المكي المتوفى سنة أربع عشرة ومئة"(٦٦).

١ - نموذج ابن حبان في الترجمة لمشاهير رجال مكة والمدينة:

ألف أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي، المحدث الثقة المترجم، صاحب "الصحيح" و"الثقات" و"المجروحين"، المتوفى سنة

---

(٦٣) [اعتقاد أهل السنة: ٢/٢٣٥]، تح. أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ.
(٦٤) [تذكرة الحفاظ: ١/١٠٦].
(٦٥) [سير أعلام النبلاء: ١٢/٤٢٥].
(٦٦) [كشف الظنون: ١/٤٣٠].

(٣٥٤هـ)(٦٧) كتاب "مشاهير علماء الأمصار"(٦٨). واستهل تأليفه بالترجمة لأهل المدينة النبوية؛ لأنها مهبط الوحي، ومعدن الرسالة، وفيها نصر النبي ﷺ كثيرا، ومنها انتشر الإسلام، وظهر أعلام الدين، وبها قبر رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيها قطن جلة الصحابة أجمعون الذين هم منار الإسلام، وبهم صان الله دينه عن الانثلام، وأول مبدوء بترجمته هو النبي ﷺ محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر، وهو قريش بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهذا هو منتهى أنساب العرب؛ لأنه ليس يصح من عدنان إلى إرم فيه إسناد، حسب ما ذكر ابن حبان في "مشاهيره"، ثم ترجم للصحابة بدءا بالخلفاء الراشدين، ثم باقي

---

(٦٧) اشتهر عند كثير من العلماء أن ابن حبان متساهل في التصحيح؛ يوثق ما يضعفه العلماء، ويضعف ما يوثقونه؛ فانصرف عن اعتماد آرائه وأقواله كثير من العلماء، والحقيقة أن ابن حبان رجل من رجال الحديث، شهد له كثير من العلماء بالتوثيق والصحة، وله مصنفات مشهورة، منها [صحيح ابن حبان] الذي رتبه ابن بلبان؛ وهو يضم الصحيح الذي يوافقه عليه جمهور أهل العلم، وهذا هو الغالب على كتابه، ويضم ما تنازع فيه العلماء، وأورده هو في صحيحه، وليس ذلك يغض من شأنه ومنزلته العلمية، فهو معرض للنقد والجرح والتعديل كغيره من علماء الحديث، ويضم في أحيان قليلة شيئا مما يكون قد وهم فيه، كتخريجه لسعيد بن سماك بن حرب بعض الأحاديث المتروكة. و[كتاب المجروحين]، وهو كتاب عظيم في بابه، حتى قال جماعة من العلماء: "كل رجل يوثقه ابن حبان فعض عليه بالنواجذ، وأما ما يضعفه فتوقف عليه"، فهذا يفيد أهمية توثيق ابن حبان رحمه الله، ورماه الحافظان الذهبي وابن حجر بالتشديد في نقد الرجال، وكثيرا ما كان يحيل على كتابه الصحيح، ويقول عن بعض الرواة، مثل: محمد بن أبان ومجالد: "تبرأنا من عهدته في كتاب المجروحين". انظر: [صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان].

(٦٨) [مشاهير علماء الأمصار]، لأبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (ت ٣٥٤)، تح. م. فلايشهمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥٩م. وقبله ألف أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣): [تسمية فقهاء الأمصار]، تح. محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، ط.١/ ١٣٦٩هـ، وبدأ بفقهاء المدينة من الصحابة والتابعين وأئمة الفقه، قبل فقهاء الأمصار الأخرى؛ لأنهم أهل النصرة.

الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، أورد بعد ذلك مشاهيرهم بمكة، والكوفة، والبصرة، الشام، وواسط، ومصر، وخراسان.

أما الترجمة لمشاهير مكة من الصحابة بعد ذكر رجال المدينة، فلا يعني أن المدينة أفضل من مكة كما مر بنا في الحديث عن "قيمة مكة الدينية"، ولكن مرد ذلك إلى أن مشاهير الصحابة بمكة، دفعتهم الهجرة والأسفار والغزوات والتجارات إلى الخروج منها، ومنهم من كان له مقام بها وبالمدينة، مثل: عبدالله بن أبي بكر الصديق الذي كان يقيم بالمدينة مدة وبمكة زمانا؛ فهو ممن قطن الحرمين معا، وله فيهما دور وأموال(٦٩).

٢- نموذج الترجمة لمن نعت بالمكي من العلماء من ذوي الأصول غير المكية:

حفظت لنا مصادر ترجمة رجال الحديث أسماء كثير من علماء الحديث الذين خدموا السنة النبوية الطاهرة، من ذوي الأصول غير المكية، الذين جاوروا بالبقاع الطاهرة، أو ولدوا بها وتوفوا، حتى دعي الواحد منهم بالمكي، وإن كان منحدرا من أصول غير مكية، ومنهم صاحب الترجمة المشهورة بـ"ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد"، وهو:

- تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي الحسيني الفاسي المكي المالكي، المولود بمكة سنة ٧٧٥هـ والمتوفى بها سنة ٨٣٢هـ، قاضي المالكية(٧٠) بمكة المكرمة، عني بالحديث؛ فقرأ وسمع كثيرا عن شيوخه الكبار، وحضر مجالس العلماء، ومنها: مجلس الشريف عبدالرحمن الفاسي في الفقه، تنقل بين مكة والمدينة النبوية ودمشق

---

(٦٩) [مشاهير علماء الأمصار: ٣٠].

(٧٠) [ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد: ١/ ٦٠]، أبو الطيب محمد بن أحمد الفاسي المكي (٧٧٥-٨٣٢)، تح. كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١/ ١٤١٠هـ. انظر ترجمته في كتابه هذا، تحت رقم [٥٢].

ومصر، وروى كثيرا بالإجازة(٧١)، ومن مقروءاته "صحيح البخاري" قرأه ثلاث مرات على مسنديه، وهو صاحب "ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد"، ألف تذييله على كتاب "التقييد لمعرفة الرواة والمسانيد" لأبي بكر محمد بن عبدالغني بن أبي بكر بن نقطة البغدادي الحنبلي، وضمنه ما أهمله من ذكر جماعة من الرواة لم يكونوا أخفى حالا من الذين ذكروا(٧٢)، ومن مؤلفاته كتب في الحديث من مروياته، ومنها تواريخ لمكة المشرفة، جمع فيها بين ما ذكره الأزرقي من أخبار عمارة الكعبة المشرفة، وحليتها ومعاليقها وكسوتها، وخبر الحجر الأسود، والحجر، ومقام إبراهيم الخليل عليه السلام، والمسجد الحرام، وزمزم، وسقاية العباس رضي الله عنه، والصفا والمروة، وحدود الحرم، والأماكن المباركة بمكة وحرمها، وأمصار مكة في الجاهلية والإسلام...، وبين ما تجمع لديه فيما بعد، وأضاف إلى ذلك أحاديث وآثارا في فضائل الكعبة والأعمال المتعلقة بها وما يحيط بها، وأمورا كثيرة لم يذكرها الأزرقي، مثل: أحاديث نبوية، وآثار عن الصحابة والسلف، ومسائل فقهية وحديثية لها صلة بمكة وأهلها وولاتها وملوكها، ومنها أيضا ما علمه من المآثر بمكة وحرمها، كالمدارس والربط وغيرها...

ومن مؤلفاته أيضا: "شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام"(٧٣)، ومختصره "هادي ذوي الأفهام إلى تاريخ البلد الحرام"، ثم مختصره "الزهور المقتطفة، من تاريخ الكعبة المشرفة"، وكتاب "العقد الثمين في أخبار البلد الأمين"(٧٤)، فيه تراجم كثيرة لجماعات من علماء مكة وولاتها وقضاتها وخطبائها وأئمتها ومؤذنيها، ومن

---

(٧١) ترجم أبو الطيب الفاسي المكي المالكي، لنفسه في كتابه: [العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين]، الجزء الأول من الكتاب، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٧٢) انظر مقدمة كتابه: [ذيل التقييد في رواة السنن والمسانيد].

(٧٣) دار الكتب العلمية، بيروت.

(٧٤) مؤسسة الرسالة، بيروت.

سكنها مدة طويلة أو مات بها، ومن عمر بأماكنها المباركة. وترجم فيه أيضا لجماعة من الصحابة المكيين الذين ينحدرون من قريش، ومن كنانة وخزاعة لمشاركتهم قريشا في الدار، ومن الطائف وثقيف، ومن مؤلفاته أيضا "عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى" اختصره من "العقد الثمين".

- ومن شيوخ الحديث بمكة أبوه أحمد بن علي بن محمد بن عبدالرحمن الحسني الشريف، شهاب الدين أبو العباس الفاسي المكي المالكي، سمع من القاضي عز الدين بن جماعة، ومن الموفق الحنبلي، ومن الشيخ خليل المالكي صحيح مسلم، اشتغل بالفقه والأصول والعربية والمعاني والبيان والأدب وغير ذلك. ومن شيوخه في الفقه والنحو الشيخ أبو العباس بن عبدالمعطي المكي، والشيخ موسى المراكشي(٧٥)، وأخذ عن القاضي أبي الفضل النويري أشياء من العلم. وأفتى كثيرا وحدث، قال صاحب "ذيل التقييد" عن أبيه هذا: "أخذت عنه بمنى ومكة، وسمع منه الطلبة، وله تواليف في مسائل"(٧٦)، وغيرهم.

- ومحمد بن أحمد بن علي الحسني الشريف أبو الفتح الفاسي المكي المالكي سمع بمكة على عثمان بن الصفي أحمد بن محمد الطبري سنن أبي داود، ومن عمه أبي الحسين بعض الملخص للقابسي، ومن جماعة، ولد بمكة سنة ٧٣٢هـ، وتوفي بها سنة ٧٩٦هـ(٧٧). وله بنت محدثة هي السيدة الشريفة أم الهدى، التي أجاز لها الشيخ المحدث عبدالقادر بن محمد الدمشقي الفرا المعروف بابن القمر المتوفى سنة ٨٠٣هـ(٧٨).

---

(٧٥) [ذيل التقييد: ١/٣٥٠]، رقم الترجمة: [٦٩٠].

(٧٦) [ذيل التقييد: ١/٣٥٠-٣٥٢].

(٧٧) [ذيل التقييد: ١/٨٠] رقم الترجمة: [٧٢].

(٧٨) [ذيل التقييد: ٢/١٤١-١٤٢].

- ومن علماء الحديث بمكة أيضا جد صاحب "ذيل التقييد" محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن علي الحسني، الشريف أبو عبدالله الفاسي، نزيل مكة، المولود سنة ٦٧٣هـ، والمتوفى سنة ٧١٩هـ، سمع بمكة والمدينة على جماعة من العلماء(٧٩).

ويلحظ على هؤلاء العلماء الذين ترجم لهم، أنهم منحدرون من أصول غير مكية، وإنما دعي الواحد منهم بالمكي؛ لإقامته بمكة، وتلقيه العلم فيها، أوإلقائه العلم على طلبته فيها.

وقد اخترت نماذج من هؤلاء النزلاء أوالمولودين بمكة، من أسرة الفاسي؛ لأنها من الأسر المغربية العريقة التي كان لها حضور مشهود بالبلد الحرام نزولا وتعليما وتعلما، وعندها حرص شديد على الجمع بين النسبتين المكية والمغربية.

الخاتمة:

وخلاصة القول: إن موضوع "مكانة مكة" المكرمة قد ألف فيه كثير من العلماء مصنفات عدة، اختلفت وتنوعت باختلاف مقاصد التأليف ودوافعه، واختلاف الميدان العلمي والاهتمام المعرفي وطرائق التأليف والتخصص. وقد أفاض العلماء في استعراض فضائل مكة الدينية، وجمعوا نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف التي تبين فضل البلد الأمين على ما سواه من بقاع الأرض - غير المدينة النبوية - وعنوا عناية خاصة بذكر بقاع مكة وآثارها ومشاهير أعلامها من الصحابة والتابعين والسلف الصالح من العلماء، وذكروا فضل الإقامة بها، وتلقي العلم عن الشيوخ بجوار حرمها.

موضوع "مكانة مكة" المكرمة ألف فيه كثير من العلماء مصنفات عدة

---

(٧٩) [ذيل التقييد: ١/٢٢٩-٢٣٠] رقم الترجمة: [٤٤٨].

وقد اقتصر هذا البحث على بيان ثلاثة نماذج من الاتجاهات في التأليف في "مكانة مكة"؛ فمن العلماء من استعرض فضائل مكة الدينية، وما تمتاز به من أركان ومواقف ومشاهد تؤدى فيها الشعائر، وحرمات تعظم وتوقر. ومنهم من أسهم بالترجمة لرجال مكة ومشاهيرها عن طريق تصنيف تراجم للرواة وطبقات المحدثين، ممن ولدوا فيها وتلقوا العلم، أو جاوروا وعلَّموا بها، وفي منهج الترجمة لرجال مكة، بيان لمكانتها العلمية. ومنهم من أسهم بوضع تصانيف في تاريخ مكة وأخبارها وأيامها، لبيان قيمتها التاريخية، فصنف على منهج الحوليات أو منهج الخطط.

هذا، وإن التأليف في فضائل مكة الدينية ومنزلتها العلمية ومكانتها التاريخية والتعريف برجالها وعلمائها ومشاهيرها، ليعد لونا من ألوان التصنيف العلمي، كان له أثر في انتشار أدب خاص من آداب التصنيف هو أدب فضائل مكة، وما يتصل بذلك من مكانة تبوأتها جزيرة العرب في نفوس المسلمين عامة، ومدينة مكة على وجه الخصوص، حتى غدت مركز إشعاع عقدي وعلمي في العالم الإسلامي، وحولت مدن الإسلام الرئيسة إلى مراكز للعلم، ومنها المدينة النبوية والكوفة والبصرة وبغداد والشام ومصر والأندلس، واستقطبت علماء هذه المراكز وفضلاءها وصلحاءها، ونشأ التفاعل العلمي بين مكة وباقي الأمصار، فكان موسم الحج، والمجاورة بالبلد الحرام مناسبات للالتقاء بين علماء مكة وعلماء الأمصار الأخرى، مثل: طاووس بن كيسان من اليمن (ت ١٠١هـ)، والحسن البصري (ت ١١٤هـ)، وسلمة بن كهيل الكوفي (ت ١٢١هـ)، وغيرهم من باقي الأمصار كثير، وتوالت اللقاءات بين العلماء في القرون التالية، وتوطدت دعائم حركة علمية وازدهار ثقافي، تمثلت في عقد المناظرات بين المجاورين والوافدين والمكيين، فكانت المناظرات وحلق

العلم والتدريس والرباطات والمدارس علامات على ازدهار الحضارة الإسلامية، وانتعاش ثقافة الحوار التي أسسها القرآن الكريم وعلمها النبي ﷺ(٨٠). وهذه العوامل كلها جعلت من مكة مركز إشعاع عقدي وثقافي وتاريخي على مر العصور، وامتد تأثيرها إلى عصور تلت وأمصار عدة.

---

(٨٠) سلك النبي ﷺ سبيل الحوار والجدال بالتي هي أحسن منذ أن كان في مكة إلى أن قامت بينه وبين اليهود مناظرات معروفة، وبينه وبين نصارى نجران عندما انتقل إلى المدينة، وبينه وبين أصحابه الكرام - رضي الله عنهم - بقصد التربية والتوجيه، وبينه وبين الأعراب الذين كانوا يفدون إليه، فيسألون عن الإسلام والصدقات، كما سلك عليه الصلاة والسلام سبيل الحوار في الحديبية مع مشركي مكة وقبول ما فيه خير الفريقين. انظر على سبيل المثال: مجادلة المشركين رسول الله ﷺ، وإقامة الحجة الدامغة عليهم بالحوار وبالتي هي أحسن، واعترافهم في أنفسهم بالحق، وإن أظهروا المخالفة عنادا وحسدا وبغيا وجحودا: [السيرة النبوية: ١/٤٩٨]، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤)، تح. مصطفى عبدالواحد، دار الفكر، بيروت، ط. ٢/ ١٣٩٨هـ-١٩٧٤م.